آية من ..
كتاب الله ..

للشهيد : سيد قطب

« إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة . يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون . وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين » .

هذا النص الذي تلوتُه من قبل وسمعتُه ألف مرة أو تزيد في أثناء حفظى للقرآن ، وفي أثناء تلاوته بعد ذلك ودراسته في أكثر من ربع قرن .. هذا النص أشهد أننى أدرك منه اللحظة ما لم أدركه في ألف مرة أو تزيد !

إنه نص رهيب . نص يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين الصادقين بالله ، وعن حقيقة البيعة التي في أعناقهم طول الحياة . فمن بايع البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه معنى لفظ (المؤمن) وحقيقته ، وإلا فهي دعوة تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة ــ أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة ــ أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شيء . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيل الله . لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا . كلا ! إنها بيعة كاملة . لشاريها أن يتصرف بها كما يفرض وكما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء ، سوى أن يمضى في الطريق المرسوم . لا يتلفت ولا يخير ولا يناقش ولا يجادل ولا يقول إلا الطاعة والعمل

والاستسلام .. والثمن .. هو الجنة .. والطريق هو الجهاد .. والنهاية هي النصر أو الاستشهاد :

« إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنينَ أنفُسَهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجَنَّةَ يقاتِلون في سبيلِ الله فَيقتُلون ويُقتَلون .. ».

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن حقا . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا .. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا . وإلا فهو مالك الأنفس والأموال ، وهو واهب الأنفس والأموال . ولكنه كرّم هذا الإنسان فجعله مريدا ، وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها ــ حتى مع الله ــ وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ، وجعل وفاءه بها مقياس آدميته الكريمة ، كما جعله مناط الحساب والجزاء .

وإنها لبيعة رهيبة ــ بلا شك ــ ولكنها في عنق كل مؤمن ، لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ــ والعياذ بالله ــ ومن هنا رهبتها التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات : « إنَّ اللهَ اشْتَرَى منَ المُؤْمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهُمَ الجنةَ يُقاتِلون في سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلون ويُقْتَلوَن .. ».

يا ألله ! عونك اللهم فإن العقد رهيب .. وهؤلاء القاعدون بالملايين في مشارق الأرض ومغاربها ، يدعون أنهم مؤمنون بك ، وهم قاعدون ، لا يقاتلون لإعلاء كلمتك ولا يَقتلون ولا يُقتلون ولا يجاهدون جهادا ما دون القتال والقتل يسدون به ثغرة ، ويساهمون به في الدفاع عن دينك الذي أردت له النصر والاستعلاء .

وإن الطريق لواضح لا خفاء فيه ولا غموض .. طريق البيعة الماضية في عنق كل مؤمن .. القتال في سبيل الله حتى النصر أو الشهادة إلا إن تكون المعركة الدائمة بين الحق والباطل لا تحتاج ــ في بعض أدوارها ــ للنفير العام من جميع المؤمنين ، وإلا أن يكون من موجبات الجهاد ومكملاته أن ينهض فريق من الأمة المؤمنة بغير القتال في الميدان من الواجبات الأخرى المتممة للقتال ، الضرورية لحياة الأمة من تدبير للعلم والإنتاج والتربية والإعداد . على أن يكون المتجه كله إلى الميدان الأصيل . ميدان الجهاد في سبيل الله . على السنة الماضية التي قضى الله أن تقضى فيها الحياة : « إنَّ اللهَ اشترى منَ المُؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لَهُم الجنةَ يُقاتِلون في سبيلِ الله فَيَقْتُلون و يُقتلون ... » .

ولقد كانت هذه الكلمات تصل إلى قلوب مستمعيها الأولين ــ على عهد الرسول ﷺ ــ فتتحول من وقتها إلى واقع من واقع حياتهم ، ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ، ويحسونها مجردة من مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها ، لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . هكذا أدركها عبد الله بن رواحة ــ رضى الله عنه ــ في بيعة العقبة . قال محمد بن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله ﷺ يعنى ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : (أشتَرِطُ لِربِّى أنْ تَعبدُوه وَلَا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وأشتَرِطُ لِنفسِى انْ تَمنعُونى مِمَّا تَمنَعُونَ مِنه أنفُسَكُم وأموالَكُم) قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : (الجَنَّةَ) قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل . فنزلت : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... » .

هكذا .. ربح البيع . لقد أخذوها على أنها صفقة ماضية بين متبايعين ، انتهى أمرها وأمضى عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل : لا نقيل ولا نستقيل .. فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا نقض لها ، ولا تخلف عن إنفاذها . والجنة الموعودة ثمن مقبوض لا موعود . أليس الوعد من الله ؟ أليس أن الله هو المشترى وهو الذى وعد الثمن . وعدا قديما في كل كتبه : « وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن » .. « ومن أوفى بعهده من الله ؟ » .. أجل ! ومن أوفى بوعده من الله ؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كانت الأديان من عند الله . إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها . لا بد للخير أن يغالب ، ولا بد للحق أن يجاهد ، ولا بد لكلمة الله أن تعلو وأن تظل في علاء . وما دام في هذه الأرض كفر ، وما دام في هذه الأرض شر ، فالجهاد في سبيل الله بيعة معقودة في عنق كل مؤمن ، ولا مناص منها ولا فكاك . وإلا فليس بالإيمان : و « مَن ماتَ وَلَمَ يَغْزُ وَلَمْ يحدِّث نفسَه بغزوٍ ماتَ عَلى شُعْبَـةٍ من شعُبِ النِّفاقِ » كما قال رسول الله .

« فاستَبشِروا بِبَيعكُم الَّذي بَايعتُم بِه ، وذلكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيم » ..
استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله . وأخذ الجنة عوضا ، كما وعد

الله . وما الذي فات ؟ ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة ؟ والله ما فاته شيء . فالنفس إلى موت ، والمال إلى نفاذ ، سواء كان أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل الشيطان . والجنة كسب . كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر . فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك !

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله ، ينتصر إذا انتصر لإعلاء كلمته ، ويستشهد إذا استشهد في سبيل الله . يستشعر في كل حركة أنه أعلى من قيود الأرض ، وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، وأن المخاوف على النفس والمال لا تؤرق جفنيه ، ولا تقلق أعصابه ، ولا تشغله ببلبال !

إن هذا وحده كسب . وإنه تحقيق لإنسانية الإنسان التي تتأكد كلما شعر الإنسان بحريته وتخلصه من أوهاق الضرورات ، ومن الخوف على الحياة ، ومن القلق على فوات المصالح والأرزاق . فإذا أضيفت إليه الجنة فهو بيع يدعو إلى الاستبشار . « وذلك هو الفوز العظيم » ..

ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ، إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في صفات وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تنطبق عليهم حقيقة الإيمان وتتمثل فيهم هم قوم تتمثل فيهم صفات أصيلة :

« التَّائِبون . العَابِدون . الحامِدون . السَّائِحون . الرَّاكِعون السَّاجِدون . الآمِرون بالمَعروفِ والنَّاهون عَن المُنكرِ . والحَافظونَ لحدودِ الله ... » .

أولئك هم المؤمنون .. التائبون مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين . والتوبة شعور وجداني بالندم مما وقع ، وتوجه إلى لله فيما بقي ، وكف عن الذنب وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها الكف بالترك .

العابدون .. المتوجهون إلى الله وحده بالعبودية والعبادة ، إقرارا بالربوبية . صفة هذه في نفوسهم ، تحققها الشعائر ، كما يحققها التوجه إلى الله بكل عمل وكل قول ، وابتغاء وجه الله بكل حركة وكل سكنة ، وكل خالجة في القلب أو عمل في الحياة .

الحامدون .. الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف بنعمة الله دائما ، وتلهج ألسنتهم بحمد الله دائما . في السراء والضراء . في السراء للشكر على ظاهر

النعمة ، وفي الضراء لإدراك ما في الابتلاء من رحمة . وليس الحمد الحمد في السراء وحدها ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب الشاعر أن الله الرحيم ما كان ليبتلي إلا لخير يعلمه يخفى على العباد .

السائحون .. وتختلف الروايات فيهم ، فمنها ما يقول : إنهم المهاجرون . ومنها ما يقول : إنهم المجاهدون ، ومنها ما يقول : إنهم الصائمون ، ومنها ما يقول : إنهم المتنقلون في طلب العلم والمعرفة . ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في سنن الله وآياته ، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ... الخ » فهذا الوصف أليق بالجو هنا بعد التوبة والحمد والعبادة ؛ فمع التوبة والحمد والعبادة يكون التأمل في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله ، ومعرفة حكمته في خلقه ، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق . لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في التأمل والاعتبار – كما يقول بعض المتصوفة – ولكن لبناء الأعمال بعد ذلك على أساس ذلك الإدراك . فالإسلام دين عمل واعتقاد ، والحركة أداته إلى الصلاح والعمران .

الراكعون الساجدون .. الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكان الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس .

« الآمِرُونَ بالمَعروفِ والنَّاهونَ عن المُنكر » .. فهم قائمون بالدعوة في الجماعة ، لا ينزوون داخل نفوسهم ، تاركين المعروف ينكر ، والمنكر يستهتر . فالجماعة المسلمة جسد واحد لا يكفي أن يصح بعض أعضائه دون بعض . فالصحيح من الأعضاء في الجسم السقيم لا يقدر على العمل ، ولا يحتفظ بسلامته إلا إلى حين . وما من فضيلة يمكن أن تعيش طويلا في نفس فرد يحيا في مجتمع تسيطر عليه الرذيلة وتستشرى . وما يملك إنسان أن يقول : إنه مؤمن ، والجماعة من حوله تتردى في الشر والفساد وهو قاعد لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر .

« والحَافظونَ لحُدودِ الله » .. وهذه خطوة بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لأنها القيام على حدود الله لتنفيذها ، ومنع التعدى عليها وإضاعتها . ومقاومة من يضيعها أو ينتهكها .

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله بيعته معها . وهذه هي صفاتها ومميزاتها : توبة ترد العبد إلى الله وتكفه عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح . وعبادة تصله بالله وتجعل الله غايته ووجهته فيما يعمل وفيما يترك . وحمد لله على سرائه وضرائه نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة الكاملة برحمة الله . وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون على الحكمة والحق في تصميم الخلق . وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى صلاح العباد وصلاح الحياة . وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين المضيعين ، ويصونها من التهجم والانتهاك .

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضي مع سنة الله الجارية منذ أن كانت العقائد والأديان : قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقتل لأعداء الله الذين يصرون على أن يحادوا الله . أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال .

وليست الحياة لهوا وعبثا ، وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا . وليست الحياة سلامة كسلامة الأذلاء الذين هم أحرص الناس على حياة . وليست راحة واسترخاء وتعطيلاً للطاقات الكامنة في الروح والذهن والعصب والعضل .. إنما الحياة هي هذه : كفاح في سبيل حق ، وجهاد في سبيل خير ، وانتصار لإعلاء كلمة الله ، أو استشهاد كذلك في سبيل الله .. ثم الجنة ورضوان الله ..

هذه هي الحياة ..

من صلى الصبح فهو في ذمة الله

عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « منْ صلى صلاةَ الصبح فهوَ في ذِمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمتهِ بشيء فإنه منْ يطلبهُ منْ ذمته بشيء يدركه ثم يَكُبُّهُ عَلَى وجْهه في نارِ جَهنَّم » رواه مسلم .